دلالة الألوان في آيات القرآن

د/ سامي يوسف أبو زيد
د/ عبد الرؤوف زهدي مصطفى
كلية الآداب
جامعة الأردن.

الملخّــص:

لقد ذكر الله – سبحانه – في القرآن الكريم ألوانا مختلفة، وخصّ ذكر بعضها أكثر من الآخر. وقد تبيّن لنا أن لكل لون سياقاً إيجابيا أو سلبيا أو محايداً، أو يجمع بين سياقين في موضعين مختلفين في الآيات التي وردت فيها هذه الألوان.

ولاحظنا أن دلالة هذه الألوان توزّعت على المخلوقات كلّها من بشر، وحيوانات، ونباتات، وجمادات.

وبيّنا أن للون أثراً ماديا وآخر معنويا ونفسيا يعكس ما في النفس على صفحة الوجه أحيانا.

وتبيّن للباحثين أن هذه الألوان تشترك دلالتها بين الدارين ثوابا أو عقابا وهذا دلالة على عدل الله وقضائه سبحانه.

وتبيّن أخيراً أن للألوان وظيفة إرشادية تمثّلت في ضرب المثل بها للاعتبار والاتّعاظ، إضافة إلى الوظيفة اللغوية الدلالية للألوان التي لا يفهمها إلاّ أبناء العربية.

Abstract:

In Glorious Quran, our God mentioned various colours and focuses on particular ones more than others. It's evident in the verses that each colour has a positive, negative and neutral signification or combining two of these significations or combining two of these significations in two different contexts.

The paper also includes the signification remarked among all entities; human beings, animals, plants and inanimate beings.

In addition to that, colours also have physical, spiritual and psychological effect by reflecting sometimes the internal feeling on the face.

It's quite clear that these colours combining their signification to imply a reward or a punishment in daily life, or on Booms day. Moreover, these colours reveal Allah's justice and sovereignty.

Finally, they function as guidance embodies in narrating a parable besides their lexical linguistic function that can't be understood only by native speakers of Arabic.

المنارة للاستشارات

المقدمة

فقد شُغل كثير من الناس – في زماننا – عن التـفكّر، والتأمّل، والتدبّر في ملكوت الله الرحب المحيط بهم، وقصروا أنظارهم على أمتار معدودة، ومساحات محدودة فتعلّقت بصائرهم – مثـل أبصارهم – بكرة تـتـقاذفها أقدام اللاعبين، أو لقمة بين جدران الطابخين، أو عجلة سيارة، أو شاشة تلفاز، أو سرير شهوة.

ولو فكّر أحدهم وتأمّل في الخلق، والحياة والطبيعة لوجد أمامه لوحة جمالية أبدعها الخالق – سبحانه – أحسن إبداع، وأروع إتقان، وأعظم صنع (**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ آلْخَـالِقِينَ**) **(المؤمنون: 14)**.

براها الخالق – سبحانه – بديعة متـناسقة تهزّ الوجدان وتوقظ الإحساس، وتغذّي الرّوح، وتبعث في النفس المسرّة والمتعة (**صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ**) **(النمل: 88)**.

وتـمتاز كل جزئية من هذه اللوحة الكونية بقدر باهر من الزينة التي تـتخلّل ذراتها، وتعطّر أغصانها، وتسرّ الناظرين إليها، ليهنأ الإنسان بجواذب الجمال في حياة وادعة جعلها الله مكان ابتلاء واختبار (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) **(الكهف: 7)**.

وفي هذه اللوحة الساحرة التي ابتدعها المبدع – سبحانه – اختلفت الألوان بتـناسق تكويني عجيب أخّاذ، فانتظمت بذلك الحياة والأحياء والجماد في روعة بارعة لا يدركها إلاّ مـن أوتي إحساساً مرهـفا، ونـفْسا ذوّاقة، وعقلا متدبّرا في هذا الصنع البديع، يقول تعالى: (**وَمِنْ ءَايَـتِهِ خَلْقُ السمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَـفُ أَلْسِنَتُكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَتٍ لِلْعَلَمِينَ**) **(الروم: 22)**. وقوله – سبحانه –: (**وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**) **(النحل: 13)**.

لهذا كلّه أحببنا أن نبحث، ونستـقصي، وندرس ونخوض مضمار هذه الحديقة الغنّاء من الألوان الزاهية التي تنتظم ما خلق الله في ملكوته، وأعددنا من خلالها بحثا نبيّن فيه دلالة الألوان في آيات القرآن، وماهيتها، واستعمالاتها، وعلاقتها بما يحيط بنا من مخلوقات وجمادات، وأثر هذه الألوان في مجريات حياتنا.

المنارة للاستشارات

وقد قسّمنا البحث إلى مقدمة، وفصلين، وخاتمة، جعلنا المقدمة مدخلا للبحث وذكرنا فيها أهميته وطريقــته.

أما الفصل الأول فأشرنا فيه إلى ذكر اختلاف الألوان في القرآن، وعلاقة هذه الألوان بما يحيط بنا من المخلوقات، ثم ذكرنا نبذة يسيرة تعرّف بالألوان.

وجعلنا الفصل الثاني لبيان دلالة الألوان المذكورة في القرآن الكريم، وتــناولناها لَوناً لَوناً بحسب تكرار وجودها، وبيّنا دلالتها، وأثرها علينا، وعلاقتها بالمخلوقات، وتباين علاقات الألوان فيما بينها متى وجدت.

وختمنا البحث بخاتمة ذكرنا فيها النتائج التي خلص إليها البحث وتوصلنا إليها.

وأخيرا فالله نسأل أن يكون عملنا موفقا وصوابا، وأن ينفع به كل من يقرؤونه، وأن يجعله خالصا لله سبحانه وتعالى.

الفصل الأول : لإشارة إلى الألوان في القرآن الكريم

لقد خلق الله – تعالى – كلّ ما في الكون وسخّره لخدمة الإنسان، ولتحقيق راحته وهنائه، وحرصت القدرة الإلهية على أن تكون المخلوقات جميلة مع كونها نافعة، فيفيد الإنسان وينتــفع، وفي الوقت ذاته يُسرّ بجمال الأشكال وتعدّد الألوان المنبثّــة في لوحة هذا الكون، وإن غفلت عيوننا عن الالتــفات إلى مشاهد الجمال ذكّرنا بها القرآن.

وقد خلق الله الناس بألوان مختلفة، ولم يخلقهم بلون واحد، فكما اختلفت الألسنة، اختلفت ألوانهم وأشكالهم، يقول تعالى: (**وَمِنْ ءَايَــتِهِ خَلْقُ السمَــوَتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَــفُ أَلْسِنَتُكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَــتٍ لِلْعَــلَمِينَ**) **(الروم: 22)**. واختلاف الألسنة والألوان يؤديان إلى تمايز الناس وإلى تعارفهم.

ولم يقــتصر الاختلاف على الجنس البشري فقط في اللون، بل نجده في هذه الطبيعة وما فيها من حيوانات ومزروعات بألوان مختلفة وأشكال متباينة، ومناظر متــفرقة، كما في قوله تعالى: (**وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**) **(النحل: 13)**. وقد خصّ – سبحانه وتعالى – المزروعات والنباتات باختلاف طعومها، وروائحها، ومنافعها، وألوانها في قوله: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ**

المنارة للاستشارات

السَمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَـابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَـاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولَى الأَلْبَـابِ) (الزمر: 21).

ولم يقصر – سبحانه – اختلاف الألوان على الناس، والحيوانات، والنباتات، بل يتعدّاها إلى الجمادات من جبال، وبحور، وأودية، وصخور تبرز ألوانها الجميلة المتعددة المختلفة وفق العوامل الطبيعية التي تؤثّر في أمكنتها كما في قوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**) (فاطر: 27).

ولن ننسى في هذا السياق اختلاف ألوان العسل الذي هو خلاصة رحيق الأزهار، والثمار وطعومها، وروائحها المختلفة، يخرج من بطون النحل بألوانه؛ الأبيض، والأحمر، والأصفر، والأسود بحسب اختلاف سنّ النحل والفصل[1]، يقول تعالى (**ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَمَـرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) (النحل: 69).

ويفهم مما سبق من الآيات أن اختلاف الألوان ينتظم المخلوقات والكائنات كلّها، وأنّ الماء هو العامل الأساس في تكوين الأشياء وتلوينها، وأن ألوان البيئة بحسب العوامل المناخية السائدة فيها تـنعكس على من يقطنها من أناس، ودوابّ، ومزروعات، وجمادات.

ولقد قدّم القرآن الكريم صورا بديعة من الجمال في جانبيه الحسّيّ والمعنوي، تدعو إلى التـفكّر في شواهد قدرة الله ودلائل ربوبيته، حقّا إنها آيات تـنطق بتوحيده.

وإنها لمتعة لا تعدلها متعة، في توزيع الألوان، والظلال، والأضواء، والكائنات في رقعة البسيطة بصورة تلفت الحسّ، وتستريح لها العين، وتهدأ لها النفس والأعصاب[2].

ولقد كان الرسول– عليه السلام – القدوة يعـتـني بالجمال عناية خاصة في بدنه، وملابسه، وحذائه، وبيته، ومسجده، ويدعو أصحابه إلى ذلك: عن ابن مسعود عن النبي(ص) قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثـقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطْرُ الحق، وغَمطُ الناس"[3].

المنارة للاستشارات

وكان – عليه السلام – يتــزيّن بالملابس ذات الألوان المختلفة ومنها: اللون الأبيض الذي يستحبه للباس الموتى وتكفينهم، ولبس الأبيض في الجُمع والمناسبات، قال عليه السلام: "البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفّنوا فيها موتاكم"[4].

وكذلك لبس اللون الأحمر؛ عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال: "كان النبي عليه السلام " مربوعا، بعيدَ ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنه، رأيته في حلّة حمراء لم أر شيئا قط أحسن منه"[5].

وكان عليه السلام يحبّ اللون الأخضر: عن أبي رمثة رفاعة التميمي – رضي الله عنه – قال: "خرج علينا رسول الله – عليه السلام – وعليه ثوبان أخضران"[6].

هكذا اصطبغت الكائنات بالألوان الزاهية منذ بدء الخليقة فرأى الناس الأزهار النضرة، والثمار اليانعة، والشمس الساطعة، والقمر المنير، والنجوم اللامعة المتلألئة، والطبيعة بألوانها المختلفة الرائعة، وقد استهوتهم هذه الألوان المختلفة، فانعكست على حياتهم زخرفة، ورسما، وتطريزا، وعمارة، وصحة، وسعادة.

الفصل الثاني: طبيعة الألوان، وأنواعها، وتأثيراتها، وعلاقاتها بالمخلوقات، وتباين هذه العلاقات.

اللون هو ذلك الأثر الفيزيولوجي الناتج على شبكة العين، سواء كان ناتجا عن المادة الصباغية الملونة أو عن الضوء الملون؛ أي هو إحساس لا وجود له خارج الجهاز العصبي للكائنات الحية. أمّا المصوّرون، وعمّال المطابع، والعاملون في الصباغة، فيقصدون بكلمة اللون؛ هي المواد التي يستعملونها في عملية التــلوين.

أمّا علماء الطبيعة فيرتبط اللون عندهم ارتباطاً وثيقاً بفهم الضوء، أو طول الموجة الضوئية، وهو اللون الأبيض الذي ينحلّ إلى ألوانه الأصيلة الأولية. كما أثبت (نيوتن) ذلك، وهي: الأحمر، والبرتــقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي. أمّا الألوان الأوّلية للأصباغ فهي ثلاثة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، وتنتج الألوان الثانوية عن خلط لونين أوليين.

وطيف الشمس لا يقتصر على سبعة ألوان، بل يوجد فيه آلاف لا تدرك العين الفروق بينهما؛ لأنّ لكل لون حوالي (265) درجة لونية يصعب إدراكها إلاّ بوساطة

المنارة للاستشارات

الأجهزة الدقيقة. أمّا الإنسان العادي فلا يستطيع أن يدرك من هذه الألوان أكثر من أربعين لونا(7).

وتحسّ العين باللون بوساطة النهايات العصبية (الأقماع) الموجودة في شبكية العين، فمن هذه النهايات ذات حساسية خاصة لتأثير الموجات الطويلة أو اللون الأحمر، ومنها ذات حساسية خاصة لتأثير الموجات المتوسطة أو اللون الأخضر، ومنها ذات حساسية خاصة لتأثير الموجات القصيرة أو اللون البنفسجي(8).

وقد استخدم المعالجون الأوّلون الأطعمة، والأشربة المادية الصرفة في معالجة مرضاهم، ثم تطوّر العلاج في العصور التالية إلى المعالجة بالكبسولات، ثم بالأشعة دون الحمراء أو فوق البنفسجية أو الأشعة المرئية المتـــنوعة الألوان.

وكذلك استعانوا بالألوان في العلاج النفسي، وتحليل شخصية الإنسان لتعديل سلوكه، وقد ثبت تأثير الألوان في الحيوانات والناس كتأثير اللون الأحمر في هيجان الثيران، والألوان الزرقاء والخضراء الخفيفة باستعمالها في المستـــشفيات؛ أي أن زرقة السماء والبحار وخضرة النبات تريح الجهاز العصبي، وتخفّف من التوتر والـــقلق.

ويقرّ هؤلاء المعالجون بأن الأضواء الملونة مادية أو معنوية فكرية، تعمل على المعالجة لكثير من الحالات النفسية، والمادية، الجسدية. معتـــقدين بوجود لون ضوئي خاصّ بكل غدّة باطنية من الغدد السبع في مراكزها المختلفة تعمل على شفاء المريض، فمثلا، يستخدمون اللون الأحمر للحيوية، وإعلاء درجة حرارة الجسم، وإطلاق الأدرينالين في الدم، ويستعملون اللون الأزرق في علاج آلام المفاصل، والتوتر العصبي، والأرق وهكذا دواليك(9).

لقد احتفى القرآن الكريم بالألوان احتفاء فنياً متميّزاً؛ لأنه يتسلل إلى الصورة يعمّقها، ويشخّصها بدلالات عديدة تغني المعنى، وتجعل اللون ملمحا جماليا، ودلاليا واضحا، ومؤثّرا في مكونات الإنسان الداخلية، وفي شخصيته، وسلوكه، وتصرّفاته. وخصّ القرآن الكريم الألوان إذ صرح بألوان خمسة رئيسة هي: الأبيض (ذكر صراحة في عشر مرات)، والخضرة (في ثماني آيات)، والسواد (في سبع آيات)، والصفرة (في

المنارة للاستشارات

خمس آيات)، والحمرة (في آية واحدة)، والزرقة (في آية واحدة) أيضا وسندرسها مرتبة بحسب أكثرها تواترا ثم الذي يليه.

وكان لكل لون مدلوليته في سياق الآيات الكريمة تتصل بأنشطة الحياة المختلفة في الحياة الدنيا أو الدار الآخرة. ولما لها من أثر بالغ في النفس البشرية، ولأن في تنوّعها وتبيانها أعظم العبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فما من مخلوق إلاّ ويخـــتـــلف لونه، وهيئته، وصورته عن شبيهه[10]. فاللون سمة تسم المخلوقات وتميّز بعضها عن بعض، لتجعل من كل واحد منها فردا وعنصرا قائما بذاته.

أولاً: اللون الأبيض:

وهو أساس الألوان، يدلّ على الوضوح والنقاء والجمال، وله دلالات كثيرة في القرآن، إذ ورد ذكر اللون الأبيض بلفظه عشر مرات، وذُكر ضمنا في آية واحدة، ومجالات دلالة هذا اللون في القرآن الكريم من بينها:

- معجزة يد موسى عليه السلام:

لقد حبا الله موسى عليه السلام بمعجزة عظيمة إذ أمره - سبحانه وتعالى - أن يدخل يده في جيبه أو تحت إبطه فتخرج بيضاء لامعة كالمصباح المنير من غير أذى، أو مرض أصابها أو عيب، بل تصبح بيضاء بياضا نورانيا ربّانيا مشعّا. فاللون الأبيض في يدي موسى - عليه السلام - قوة هائلة، وآية باهرة بما فيه من الوضاءة والتلألؤ؛ ليثبت لفرعون وقومه نبوة موسى عليه السلام[11]. نعم، إنها النّبوّة السليمة من كل نقص وعيب، إنها رسالة السماء، رسالة المحبة والسلام، والأمن، والوضوح، والنقاء والصفاء. وبرزت هذه المعجزة ومعانيها الربـــانـــيـــة في الآيات الآتية؛ (**وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّـــاظِرِينَ**) **(الأعراف 108)**؛ (**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى**) **(طه 22)**؛ (**وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّـــاظِرِينَ**) **(الشعراء 33)**؛ **(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَـــاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـــاسِقِينَ**) **(النمل 12)**؛ (**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**) **(القصص 32)**.

المنارة للاستشارات

ثانيا: اللون الأخضر:

يعدّ اللون الأخضر من الألوان التي تواتر ذكرها في القرآن الكريم، وهذا اللون نشاهده كثيرا؛ لأنه من أكثر الألوان انتشارا، وأعظمها شأنا لما يبعث من بهجة وأمل في النفوس، وبخاصة إذا كسا هذا اللون مساحات واسعة من الأرض فتبدو بساطا أخضر يسرّ الناظرين.

واللون الأخضر من الألوان الطبيعية الممتعة الدالة على الخصب والنماء في دنيا البشر، وعلى السعادة والهناء في الآخرة، وهو امتداد للخير العميم في مجالات كثيرة من بينها:

– وجه الأرض:

فبعد أن تكون الأرض يابسة هامدة شاحبة يُـنزل الله – سبحانه – الماء من السماء فترتوي، وتنتعش، وتهتزّ طربا ونشوة، فتنبت من كل زوج بهيج، فيكتسي وجهها بحلّة قشيبة خضراء ينتفع منها الناس والدوابّ والأنعام، كما في قوله تعالى:(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**)[12] **(الحج 63)**.

ثالثا: اللون الأسود:

اللون الأسود لون قاتم دالّ على الظلمة، والجهل، والكآبة والاستياء، وقد اختصّ لفظ السواد في القرآن الكريم بالإنسان والجماد. ومن بين دلالة اللون الأسود في آيات القرآن مايلي:

– الجمع بين اللونين الأبيض والأسود في تحديد بدء الصيام:

وقد مرّ ذلك في الصفحة التاسعة في حديثـنا عن اللون الأبيض في آية إباحة الأكل، والشرب، والجماع للصائم في أي الليل شاء. وقد جعل الخيط الأسود دليلا على الليل. وسواد الليل موحش غير مؤنس، تستـتر تحت جنحه الدوابّ، والهوامّ، والجانّ، واللصوص، والمجرمون، ولذا فهو لون غير محبّب للنفس، وغير مريح للأعصاب، قال تعالى: (**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخيط الأسود من الفَجْرِ) (البقرة 187)**؛ أي حتى يتبيّن لكم الليل من النهار[13].

المنارة للاستشارات

وجمع بين اللونين الأبيض والأسود لبيان وجوه المؤمنين والكافرين يوم القيامة، قال تعالى (**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمـــنِكُمْ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرُونَ**) **(آل عمران 106)**.

ورد هذا عن اللونين ههنا على سبيل المجاز؛ فبياض الوجه وسواده "كنايتان عن ظهور بهجة السرور في وجوه الذين آمنوا، وكآبة الخوف في وجوه الكافرين والمشركين والمنافقين تعكس ما في قلوبهم من كفر، وظلم، ونفاق حاقد، هول الحشر وكآبة المنقلب في جهنم، فيعني البياض نور الوجه وإشراقه، أما السّواد فيعني ظلمة الوجه وكآبته[14].

رابعا: اللون الأصفر:

اللون الأصفر من الألوان الأولية، له مساحة في حياة الإنسان ومظاهرها المختلفة وكذلك له مساحة في الحيوان والنبات، وكذلك في مجرى امتحان الإنسان في دنياه، وعذابه في آخرته. ولهذا اللون حضور في الآيات القرآنية من بينها في المجال الآتي:

- بقرة بني إسرائيل:

لمّا تخاصم بنو إسرائيل وتدافعوا بالتُّهم بشأن أحد قتلاهم، أتوْا موسى – عليه السلام – فأمرهم أن يذبحوا بقرة لها ميزات تميّزها من سائر البقر، فذبحوها بعد جدال عريض، ومراوغة قبيحة خوف العار والفضيحة! فأحيا الله سبحانه الـــقـــتـــيل وأخبر عن قاتله[15].

وقد كانت محنتهم لما شدّدوا على أنفسهم في لونها الأصفر، وهو قليل نادر حتى كلّفهم ذلك أن اشتروها بملء جلدها ذهبا، ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة! ورغم عثورهم عليها بهذا اللون، إلاّ أنهم تمادوْا في العناد واللجاجة. ولمّا بيّن لهم أنها صفراء شديدة الصفرة لم يقـــفوا عند هذا الحد بل تمادوا في الاعتراض، فشدّد الله عليهم، ثم هداهم إليها، قال تعالى (**وَإِذ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوَاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَـــهِلِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِن لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النـــظِرِينَ**)[16] **(البقرة 67-69)**. واللون الأصفر في البقر يبعث البهجة والسرور في أعين الناظرين

المنارة للاستشارات

وهو يضفي عليها مسحة جمالية وكأنّها اتخذته للزينة كما تـتّخذ المرأة الذهب حلية وللزينة، وللذّهب جاذبية شعاعية تسرّ عن الناظر إليه.

"فاقع لونها" توكيد بالفقوع، فالفقوع نعت مختص بالصفرة ولا يوصف به السواد. تقول العرب: أسود حالك وحلكوك ودجوجي غربيب، وأحمر قاني، وأخضر ناضر، وأبيض ناصع وأصفر فاقع.

وانظر إلى حكمة الله سبحانه كيف جعل اللون الأصفر، والأبيض، والأحمر، والأخضر في أعظم الأجساد، وأشرفها، وأبهجها وأحسنها منظرا وهي: الذهب الأصفر، واللؤلؤ الأبيض، والزمرّد الأخضر، والياقوت الأحمر.

خامسا: اللون الأحمر:

يشكّل اللون الأحمر جَمالاً أخَّاذا في تلوين الجبال الشاهقة، وإمتاع أنظار المتأمّلين في صفحة الكون العجيب. ومن يطّلع على ما توصّل إليه العلماء في علم الجبال يجد عظمة الخالق التي تتجلّى في كل ذرّة من ذرّات الوجود.

وما أعجب تلك اللفتة الكونية من اللفتات الدّالة على مصدر هذا القرآن، تبدأ بإنزال الماء، وإخراج الثمرات المختلفة ألوانها، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال والصخور، ففي ألوانها شبه عجيب بألوان الثمار وتنوّعها وتعدّدها، واللفتة إلى ألوان الصخور وتنوّعها داخل اللون الواحد تهزّ القلب هزّا، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحقّ النظر والالتفات[17].

وقد ورد اللون الأحمر صراحة في وصف الطرق الجبلية، يقول تعالى: (**وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا**) **(فاطر 27)**. وذكر هذا اللون بصورة مجازية في معرض الحديث عن يوم القيامة وعلاماته؛ ومنها انشقاق السماء، وظهورها بمظهر الوردة الحمراء التي تشبه الأديم الأحمر أو دهن الزيت[18]. وفي قوله تعالى: (**فَإِذَا انشَقَّتِ السَمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**)[19] **(الرحمن 37)**.

نلاحظ أن سمة اللون الأحمر تميل إلى الحياد في وصف الجبال وإلى السلبية في وصف الوردة عند انشقاق السماء يوم القيامة.

المنارة للاستشارات

سادسا: اللون الأزرق:

يعدُّ اللون الأزرق أحد الألوان الأوّلية الثلاثة، ولا تخفى على الناظر زرقة البحار والسماء؛ ولهذا فإن هذا اللون يشكّل مساحة كبيرة في الاهتداء الطبيعي لمناظر الدنيا الفسيحة! ولكنه في موازين الدار الآخرة يصبح علامة مغايرة دالّة على المجرمين، يلوّن عيونهم، ويشوّه خلقتهم، ويتّحد مع اللون الأسود الذي يوشّح وجوههم في إبراز هويتهم على رؤوس الأشهاد إذ يعرفون بسيماهم، بعد أن كانوا ينعمون في الدنيا بالألوان الزاهية في أبدانهم، وملابسهم، ومزارعهم ودوابهم! وقد نُقضت دنياهم كأنها ساعة من نهار، يقول تعالى: (**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**) **(طه 102)**.

وتحتمل كلمة "زرقا" هذه معنيين؛ أحدهما زرق العيون، وهذا اللون للعيون تبغضه العرب؛ لأن أعداءهم الروم ذوو عيون زرقاء، وثانيهما العمى؛ لأن حدقة الأعمى تصبح زرقاء[20].

الخاتمة

بعد هذه الجولة من البحث في دلالة الألوان في آيات القرآن تبيّن لنا أن الألوان لها سياقان؛ سياق إيجابي عبّر عنه اللون الأخضر في الحالات كافة، واللون الأبيض عموما، واللونان الأسود والأصفر استثنائيا. أمّا السياق السلبي لدلالة الألوان فتمثّل في اللونين الأسود والأزرق خصوصا، فاللونان الأحمر والأصفر في إحدى إمكانيتين، فاللون الأبيض استثنائيا. ويندرج في السياق المحايد – وهو سياق استثنائي – اللون الأسود، فاللون الأبيض، فاللون الأصفر في إحدى الإمكانيتين، فاللون الأحمر.

وقد توزّعت دلالة الألوان على المخلوقات كلها؛ على الإنسان والحيوان، والطبيعة الجامدة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إيجابا وسلبا.

ويمكننا استنتاج النتائج الآتية فيما يتعلق بدلالة الألوان الواردة في دراستنا:

أولاً: شمول الألوان لأوجه حياة الإنسان كافة، مادية ومعنوية في الدنيا والآخرة، فوصف جسم الإنسان (اليد، والعين، والوجه) باللون الأبيض، والعبادة في الصيام، والأحلام المتمثلة في لون السنابل في رؤيا الملك، والنبات الأخضر والأصفر، والحيوان

المنارة للاستشارات

المتمثل في بقرة بني إسرائيل الصفراء، والإبل الصفر، ووجه الأرض وجبالها، والجنة والكأس والثياب والفرش وشرر النار.

ثانياً: ارتباط دلالة اللونين الأبيض والأسود في ركن من أركان الإسلام (الصيام) لتمييز بدء الصيام ونهايته. واعتمد اللون الأبيض في برهان معجزة موسى عليه السلام. كما أضفى اللون الأخضر على الطبيعة إمتاعا وابتهاجا وسرورا تمثّل في خضرة وجه الأرض وألوان نباتاتها.

ثالثاً: استخدام اللون الذي يظهر على الأعضاء والجوارح تعبيرا عمّا تعانيه النفس أو تشعر به، إذ يظهر اللون الأبيض المستبشر على وجوه المؤمنين يوم القيامة، واللون الأسود – حزنا وغيظا – على وجوه المبشّرين بالإناث والكفار يوم القيامة، واللون الأزرق في عيون المجرمين كذلك.

رابعاً: ظهور هذه الألوان مشتركة بين الدارين: فالألوان المشتركة بين الدارين، هي الأبيض، والأسود، والأخضر، والأصفر، والأحمر، وانفردت الآخرة باللون الأزرق.

خامساً: اختلاف اللون يعدّ دليلا على قدرة الله وعظمته وعدله في قضائه بين العباد. فأما المؤمنون فثوابهم الجنة الدهماء وما فيها من نعيم مع الحسناوات ذوات البشرة البيضاء، والثياب السندسية الخضراء، والكأس البيضاء لذيذة الشرب؛ وأمّا الكافرون فعقابهم يوم تتشقّ السماء وتصبح حمراء كالدهان، أن يحشروا زرقا، ووجوههم سوداء يصلوْن نارا يتطاير شررها كأنه جمال صفراء إنذاراً وتخويفا وهلعا.

ويلاحظ أيضا وجود علاقة بين الألوان: فتارة يأتي لونان في سياق ثـنائية ضدية كالأبيض والأسود (الفجر)، وتارة يتداخلان كالأسود والأخضر (جنتان مدهامتان) أو الأصفر والأسود (البقرة والجمال).

ونلاحظ أخيرا وجود وظيفة إرشادية تتمثل في ضرب المثل بالألوان للاعتبار بتعاقبها وتغيّرها في الحياة الدنيا وفي مسرّتها ثم زوالها كمثل الزرع الأخضر النضر المتحوّل إلى الاصفرار ثم التلاشي، فضلا عن الوظيفة اللغوية وخضوع اختلاف الألوان لرؤية الناطقين باللغة العربية ونظامها. ولعل الإنسان يتّخذ من هذه الوظيفة الإرشادية

المنارة للاستشارات

والدلالية للألوان موعظة يتّعظ بها وتكون سببا في سعادته في الدنيا ورضا ربه عليه في الآخرة تؤول به إلى جنة عدن ونعيم مقيم.

الهوامش:

(1) البيضاوي، ص300.

(2) انظر: "منهج الفن الإسلامي"، محمد قطب، ط6، دار الشروق، بيروت، 1983، ص 85-96.

(3) رواه مسلم، في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم 91.

(4) رواه أبو داود في اللباس، باب في البياض، رقم 4061، والترمذي في الجنائز، باب ما يستحب في الأكفان، رقم 994.

(5) رواه البخاري في باب اللباس، باب الثوب الأحمر، رقم 3551.

(6) رواه أبو داود في اللباس، باب الرخصة في اللون الأحمر، رقم 4065، والنسائي، كتاب الزينة، رقم 5319.

(7) انظر: د. أحمد زكي "في سبيل موسوعة علمية" دار الشروق، بيروت، ص391-399.

(8) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د. محمد السقا عيد.

(9) جريدة الاتحاد، ملحق دينا، العدد 671، الأربعاء 2004/9/22م.

(10) ويقصد باللون اختلاف الأجناس أو الهيئات من الحمرة والخضرة والصفرة؛ الزمخشري 307/3.

(11) الزمخشري 101/2-102، البيضاوي 194.

(12) قال "وأنزل من السماء ماء" وتابع "فتصبح الأرض مخضرة" فعدل عن صيغة الماضي إلى المضارع ليدل على بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان. الزمخشري 21/3.

(13) جاء في اللسان 99/7، "يعني بياض وسواد الليل وهو على التشبيه بالخيط لدقته وهما فجران: أحدهما يبدو أسود معترضا وهو الخيط الأسود، والآخر يبدو طالعا مستطيلا يملأ الأفق وهو الخيط الأبيض، وحقيقته حتى يتبين لكم الليل من النهار.

(14) البيضاوي، 100-101، وانظر: الزمخشري 453/1.

المنارة للاستشارات

(15) انظر القصة كاملة في "مختصر ابن كثير" 1/76–77.

(16) أورد الزمخشري والبيضاوي بيت الأعشى:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

الأعشى، الديوان، بيروت، دار صادر، ص27.

(17) انظر: سيد قطب "في ظلال القرآن" ط17، دار الشروق، القاهرة.

(18) الزمخشري 4/148.

(19) وشرح ابن منظور كلمة "وردة" بقوله "وقال الزجاج: فكانت وردة كالدهان، أي صارت كلون الورد، وأراد أنها تتلوّن من الفزع الأكبر كما يتلون الدهان بألوان مختلفة؛ اللسان 3/456. وشرح كلمة "الدهان" بقوله "وقال الفراء: فكانت وردة كالدهان، قال: شبهها في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه؛ قال: ويقال: الدهان الأديم الأحمر، أي صارت حمراء كالأديم، من قولهم: فرس ورد، والأنثى وردة. غيره: الدهان في القرآن: الأديم الأحمر الصرف" اللسان 13/162.

(20) فسر ابن منظور كلمة "زرق" بقوله: "قال ابن سيده: إنما معناه ازرقّت أعينهم من شدة العطش، وقيل عميا يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مرة ويعمون في المحشر، وإنما قيل زرقا لأن السواد يزرق إذا ذهبت نواظرهم"؛ اللسان، ولكنه قاس كلمة "أعمى" على كلمة "زرق" في قوله تعالى "ونحشره يوم القيامة أعمى" طه 124؛ 1/139. قيل: هو مثل قوله تعالى "ونحشر المجرمين يومئذ زرقا"؛ اللسان 15/97.

المنارة للاستشارات